استدراك وتعليق

ونظرة إلى تاريخ بني العباس

-٨-

القاهر بالله (١) :

مولده سنة ٢٦٨ — خلافته ٣٢٠ (٦٣٢ م) — خلعه سنة ٣٢٢ (٦٣٤ م) .

من شعره ، وقد سملوا المتقي لله : ابراهيم ، وكان هو قد سُمِل قبلَه :

صِرتُ وإِبراهيمَ شيخَي عمىً لا بُدَّ للشيخين من مَصْدر
ما دام (توزونُ) له إِمْرةٌ مُطاعةٌ فالمِيلُ في المِجمَر

(١) هو أبو منصور بن محمد بن المعتضد . أمه أم ولد اسمها (فِتنة) . كان أهوجَ ، سفّاكاً للدّماء قبيحَ السيرة ، كثيرَ التلون والاستحالة ، مُدمنَ الخمر . ولولا حاجبه سَلامه ، لأهلك الحَرث والنسل . كان صَنعَ حَربة يحمِلها ، فلا يطرحها حتى يقتل بها إنساناً .

لما قُتل المقتدر ، أحضر هو ، ومحمدُ بن المكتفي بن المعتضد ، فسألوا ابن المكتفي أن يتولى الأمر . فقال : لا حاجة لي في ذلك ، وعمي هذا أحقُّ به ، وكُلِّم القاهر فأجاب .

وكان مؤنس الخادم ، يرى أن يُنصَّب أبو العباس بن المقتدر بعد أبيه ، قال : « إنه تربيتي وهو عاقل ، وفيه دين وكرم ، ووفاء بما —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ـــ يقول . فاذا صارت إليه الخلافة سمحت نفسُ جَدته : والدةُ المقتدر ، وإخوته وغِلمان أبيه ببذل الأموال » . فخالفه النوبختي وقال : « استرحنا بعد الكد والتعب من خليفةٍ له أمٌ وخالةٌ وخَدم يدبرونه ، فنعود إلى تلك الحالة ! والله لا نرضى إلاّ برجل كامل يدبر نفسَه ، ويُدبرنا . »

تشاغل القاهر بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحرمه ، وبمصادرتهم . وبمناظرة ، والدة المقتدر ، وكانت مريضة ، وزاد في مرضها ما بلغها عما لقيه ابنُها المقتدرُ من تعذيب وتشهير ، فامتنعت عن المأكول والمشروب ، حتى كادت تهلِك ، فرغبها النساء حتى أكلت شيئاً يسيراً من الخُبز والمِلح . ثم أحضرها القاهر عنده ، وسألها عن مالها ، فاعترفت له بما عندها من المَصوغ والثياب ، ولم تعترف بشيء من المال والجوهر . فضربها أشد ما يكون من الضرب ، وعلّقها برجلها ، وضرب المواضع الغامضة من بدنها ، وأخرجها لتُشهِد على نفسها القضاةَ ، والعدولَ بأنها قد حلت أوقافها ، ووكلت في بيعها . فامتنعت وقالت : « وقفتها على البر والقُرَب بمكة والمدينة والثغور ، وعلى الضعفى والمساكين . فلا استحل حلّها ولا بيعَها . وأنا أوكل على بيع أملاكي ، فعلها هو ، وأشهد على نفسه . فبيعت كلُها .

وسنة ٣٢١ شغب عليه الجند ، واتفق مؤنس وابن مُقلة وآخرون على خلعه بابن المكتفي .

فتحيّل القاهر عليهم ، إلى أن أمسكهم وذبحهم ، وطيّن على ابن المكتفي حائطين ، واختفى ابن مقلة ، فأحرقت دارُه ونُهبت دور المُخالفين . ثم أطلق أرزاق الجند ، فسكتوا . واستقام الأمر للقاهر ، وعظُم في القلوب ، وزِيد في ألقابه ، المُنتقمُ من أعداء دين الله . ونقش ذلك على السِكة .

ـــ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ـــ وأمر بتحريم القيان والخمر ، وقبض على المغنين ، ونفى المخانيث ، وكسر آلات اللهو ، وأمر ببيع المُغنيات من الجواري على أنهن سَواذج . وكان مع ذلك لا يصحو من السُكر ، ولا يفتر عن سَماع الغِناء ..

وفي سنة ٣٢٢ ظهرت الديلم . واستولَوا على البـــلاد ، وخرجت خراسان وفارس عن حكم الخلافة .

وفيها قتلَ القاهرُ إسحاقَ بنَ إسماعيل النوبختي ، وهو الذي كان أشار بخلافة القاهر ، ألقاه على رأسه في بئر وطُمّت . وذنبُه : أنه زايد القاهرَ قبل الخلافة في جارية واشتراها ، فحقَدَها عليه .

وفيها تحركت الجند عليه ، ذلك : أن ابن مُقلة كان في اختفائه يجتمع بالثوار ليلًا ، ـــ تارة في زي أعمى ، وتارة في زي مُكدٍ ، وتارة في زي امرأة ـــ يوجسهم منه ، ويغريهم به ، ويقول لهم : إنه بنى لكم المطامير ليحبسكم ، وغيرَ ذلك . ويصانع المُنجمين على أن يُخوّفوا القواد بما يبيّنُه لهم القاهر من شر ، وما يُضمره لهم من غدر ـــ ودخلوا عليه بالسيوف فهرب ، فأدركوه وقبضوا عليه . وبايعوا أبا العباس محمدَ بنَ المقتدر . ولقبوه : الراضي بالله .

قال علي بن محمد الخراساني : أحضرني القاهر يوماً ، والحربة بين يديه . فقال : أسألك عن خلفاء بني العباس : عن أخلاقهم وشيمهم ؟

قلت : أمّا السفّاح ، فكان مُسارعاً إلى سفك الدماء ، واتّبعه عُماله على مثل ذلك . وكان مع ذلك سَمْحاً وَصولاً بالمال .

قال : فالمنصور ؟ قلت : كان أولَ من أوقع الفُرقة بين وَلَد العباس ، وولد أبي طالب . وكانوا قبلها مُتفقين . وهو أولُ خليفةٍ قرّب المنجمين ، وأول خليفة تُرجمت له الكتب السريانية والأعجمية . ككتاب كليلة ودمنة ـــ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ـــ وكتاب اقليدس ، وكتب اليونان . فنظر الناس فيها ، وتعلقوا بها . فلما رأى ذلك محمد بن إسحاق ، جمع المغازي والسير . والمنصور أولُ من استعمل مواليه ، وقدّمهم على العرب .

قال : فالمهدي ؟ قلت : كان جواداً عادلاً مُنصِفاً ، ردّ ما أخذه أبوه من الناس غَصباً ، وبالغ في إتلاف الزنادقة . وبنى المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى .

قال : فالهادي ؟ قلت : كان جباراً متكبراً ، فسلك عمالُه طريقَه ، على قِصَر أيامه .

قال : فالرشيد ؟ قلت : كان مواظباً على الغزو والحج ، عمّر القصور والبِرَك في طريق مكة ، وبنى الثغور . كأَذَنَةَ ، وطَرسوسَ ، والمِصّيصَةِ ، ومَرْعَش . وعمّ الناسَ إحسانُه . وكان في أيامه البرامكة وما اشتهر من كرمهم . وهو أولُ خليفة من بني العباس لعِب الصوالجة ، ورمى النُّشّاب : في البُرْجاس ، ولعب بالشِطْرَنْج .

قال : فالأمينُ ؟ قلت : كان جواداً ، إلا أنه انهمك في لذاته ففسَدت الأمور .

قال : فالمأمونُ ؟ قلت : غلب عليه النجومُ والفلسفةُ . وكان حليماً جواداً .

قال : فالمعتصمُ ؟ قلت : سلك طريقَه ، وغلب عليه حبُّ العُروسية ، والتشبهُ بملوك الأعاجم واشتغل بالغزو والفتوح .

قال : فالواثقُ ؟ قلت سلك طريقة أبيه .

قال : فالمتوكل ؟ قلت : خالف ما كان عليه المأمون ، والمعتصم ، والواثق ، من الاعتقادات . ونهى عن الجدَل والمناظرات والأهواء ،ـــ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

— وعاقب عليها. وأمر بقراءة الحديث وسماعه، ونهى عن القول بخلق القرآن. فأحبه الناس.

ثم سأل عن باقي الخلفاء، وأنا أجيبه بما فيهم. فقال لي: سمعتُ كلامك، وكأني أشاهد القوم.

ولما أرادوا خلعه، بعثوا إليه بالوزير والقضاة، يدعونه إلى خلع نفسه، فأبى. وقال لهم: إن لي في أعناقكم وأعناق الناس بيعةً، ولست أبرئكم ولا أحلكم منها. فقال الوزير: يُخلع ولا نفكر فيه، فأعماله مشهورة. ثم سملوا عينيه بمسمار محمي، حتى سالتا على خديه.

قال المسعودي: أخذ القاهر من مؤنس وأصحابه مالاً كثيراً، فلما خُلع وسُمل، طُولب بها فأنكر. فعُذّب بأنواع العذاب. فلم يقرّ بشيء. فأخذه الراضي، وقرّبه وأدناه، وقال له: ترى مُطالبة الجند بالمال، وليس عندي شيء. والذي عندك، فليس بنافع لك، فاعترفْ به.

قال: أما إذا فعلتَ هذا، فالمالُ مدفونٌ في البُستان. وكان قد أنشأ بستاناً فيه أصناف الشجر، حُمِلت إليه من البلاد، وزخرفَه، وعمِل فيه قصراً. وكان الراضي مغرماً بالبستان والقصر. فقال: وفي أيّ مكانٍ المالُ منه؟ فقال: أنا مكفوف، لا أهتدي إلى المكان. فاحفِرْ البستان تجدْهُ. فحفَر الراضي البستان، وأساساتِ القصر، وقلَع الشجر، فلم يجدْ شيئاً. فقال له: وأينَ المال؟ فقال: وهل عندي مال! وإنما كانت حسرتي في جلوسك في البستان، وتنعّمك به، فأردت أن أفجعَك فيه. فندم الراضي، وحبسه إلى سنة ٣٣٣. ثم أطلقوه وأهملوه. فرقف يوماً بجامع المنصور بين الصفوف، وعليه مُبطّنة بيضاء. فقال: تصدقوا علي! فأنا من عرَفتم. وذلك في أيام المستكفي، ليُشنّع عليه، فمُنع من الخروج إلى أن مات.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الراضي بالله (١) :

مولده سنة ٢٩٧ — خلافته سنة ٣٢٢ (٩٣٤ م) — وفاته سنة ٣٢٩ (٩٤٠ م) .

---

(١) هو أبو العباس محمد بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل . أمه أم ولد اسمها (ظلوم) بويع له يومَ خُلع القاهر . وكان سجيناً . منذ سجنه القاهر ، فأخرجوه وأجلسوه على سريره . وبايعه القواد والناس ، ولقبوه بـ « الراضي بالله » وأراد علي بن عيسى على الوزارة ، فامتنع لكبره وعجزه وضعفه ، وأشار بابن مقلة . وقال للراضي : أن الوقت لا يحتمل أخلاق علي ، وابن مقلة أليق بالوقت . فاستوزره .

وأمر ابن مقلة أن يُكتَب كتاب فيه مثالبُ القاهر ويُقرأ على الناس .

وفي هذا العام : ٣٢٢ قُتل مرداويجُ : مقدّم الديلم ، وكان قد عظُم أمرُه ، وزاد جوره ، وظلمه . وغضب يوماً على الغلمان الأتراك ، فأمر أن تُحطّ السروجُ عن الدواب — وقد كثُر صهيلُها ولَعِبُها — وأن تُوضع على ظهور أصحابها الأتراك . وتحدثوا : أنه يريد قصدَ بغداد ، وأنه مُسالم لصاحب المجوس . وكان يقول « أنا أردُّ دولة العجم ، وأمحق دولة العرب .

ثم اختلّ الأمر جدّا ، فصارت البلاد : بين خارجيّ قد تغلب عليها . أو عاملٍ لا يحمِل للخليفة المال الذي قاطعه عليه . واستبد كل أمير ، وكل قائد بما تحت يده ، ولم يبقَ للخليفة غيرُ بغداد ، وغيرُ السواد ويدُ ابن رائقٍ عليه .

وسنة ٣٢٤ تغلب محمد بن رائق : أمير واسط ونواحيها ، وحكم البلاد ، وأبطل رسم الوزارة والدواوين ، وتولى هو وكُتّابُه جميعَ ذلك . وصارت الأموال تُحمل إليه . وبطلت بيوت المال . وبقي الراضي معه صورة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان الراضي أديباً شاعراً . دُوِّن شعرُه ، خطب كثيراً على المنابر . قيل وكان آخر خليفة جالس الجُلساء ، ووصل النُدماء . وكانت نفقته وجوائزه وعطاياه وجراياته وخزائنه ومطابخه وخَدَمه وحُجابه وأموره ، على ترتيب الخلفاء .

فمن شعره :

يصفرُّ وجهي إذ تأملَه ... طَرفي ويَحمرُّ وجهُه خَجلاَ

حتى كأن الذي بوجنته ... من دمِ جسمي إليه قد نُقلا

ونسبها بعضهم إلى ابن رائق .

ومن شعر الراضي يرثي أباه المقتدر :

ولو أن حيًّا كان قبراً لميت ... لصيَّرت أحشائي لأعظُمِه قبرَا

ولو أن عُمري كان طوعَ مَشيئتي ... وساعدني التقديرُ قاسمته العُمرَا

بنفسي ترى ضاجعتَ في تُربة البِلى

لقد ضم منك الغيثَ والليثَ والبدرَا

وهو شعر جيد في موضوعه ، وأن يقوله خليفة .

ومن شعره :

كل صَفوٍ إلى كدر ... كل أمرٍ إلى حذر

ومَصير الشباب للمو ... ت فيه أو الكِبَر

درَّ درُّ المشيبِ من ... واعظٍ يُنذر البشر

أيها الآملُ الذي ... تاه في لُجَّة الغِرَر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أينَ من كان قبلنا ؟ دَرَس العينُ والأثر
يرد المعادَ مَن عُمرهُ كلُّه خطر
ربِ إني ادخرت عفـــوك أرجوك مدخر
انني مؤمنٌ بما بيّن الوحيُ في السُّوَر
ربِ فاغفر خطيتي [1] أنت يا خيرَ من غَفَر

المتقي لله [2] :

مولده سنة ٢٩٧ — خلافته سنة ٣٢٩ (٩٤٠ م) — خلعه سنة ٣٣٣ (٩٤٤ م) .

من شعره وقد سملوا عينيه :

كحلونا وما شكو نا إليهمُ الرَمد
ثم عاثوا بنا ونحـــن أسود وهم نَقَد
كيف يغتر من أُقيمَ وفي دستنا قعد

(١) وفي رواية : « ربٌ فاغفر ليَ الخطيئة يا خيرَ من غفر » .

(٢) هو أبو اسحاق : إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل . أمه أمّة اسمها (خلوب) وقيل (زهرة) . لما مات أخوه الراضي بقي أمر الخلافة موقوفاً انتظاراً لقدوم أبي عبد الله الكوفي : كاتب (بجكم) من واسط . ثم بُويعَ له . فلم يُغيّر شيئاً ، ولا تسرّى على جاريته التي كانت له . وكان كثيرَ الصوم والتعبد ، لم يشرب نبيذاً قط . وكان يقول : لا أريد نديماً غيرَ المصحف . غير أنه لم يكن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ـــ له من الخلافة إلا اسمها . وكانت أيامه منفعةً عليه ، لاضطراب الأتراك . فلما اشتد الأمر عليه ، كتب إلى الاخشيد : صاحب مصر أن يحضر إليه ، ثم راسل توزون ـــ في الصلح ـــ وتوزون ، هو الذي كان الخليفة المتقي قد ولاه إمارة الأمراء ، ثم وقعت بينهما الوحشة ـــ فأجاب (توزون) إلى الصلح ، وبالغ في الإيمان . وقدم الاخشيد على المتقي وهو بالرَّقة ، وقدَّم له تُحفاً كثيرة ، وتوجع لما ناله من الأتراك . وكان بلغه مصالحةُ الخليفةِ و (توزون) فقال له : يا أميرَ المؤمنين ! أنا عبدُك وابنُ عبدِك ، وقد عرفتَ الأتراك وفجورهم وغدرهم . فاللهَ اللهَ في نفسك . سِر معي إلى الشام ومصر ، فهما لك وتأمن على نفسك .!

فقال المتقي : كيف اقيم في زاوية من الدنيا ، واترك العراق متوسطة الدنيا وسُرَّتَها ، ومستقر الخلافة وينبوعها . فقال الاخشيد : فأقمْ هنا ، وأنا أمدُّك بالأموال والرجال . فلم يقبل . فودعه الاخشيد ورجع إلى بلاده . وسار المتقي إلى بغداد على إيمان (توزون) : أمير الأتراك ، بأن لا يغدر به ، وزُيِّنت له بغدادُ زينةً ضرب بها المثل . فلما أن وصل إلى السندية على نهر عيسى ، تلقاه (توزون) ، وترَجَّل ، وقبَّل الأرض ، فأمره المتقي بالركوب ، فلم يفعل ، ومشى بين يديه إلى المخيَّم الذي ضربه له . فلما نَزلَ قبض عليه وعلى ابن مقلة ، ومن معه ، ثم سمل الخليفة فاذهب عينيه ، فصاح ، وصاح من عنده من الحَرَم والخَدم ، وارتج المكان ، فأمر (توزون) بضرب الدبادب إخفاءً للأصوات . وسميَ المتقي لله . وأُدخل بغداد مسمولَ العينين . وقد أخذ منه الخاتم والبردة والقضيب .

وأحضر (توزون) عبد الله بن المكتفي ، وبايعه بالخلافة ولقب المستكفي بالله . وبايعه المتقي المسمول ، وأشهد على نفسه بالخلع . ولما ـــ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المستكفي بالله (١) :

مولده سنة ٢٩٢ — خلافته سنة ٣٣٣ (٩٤٤ م) — خلعه سنة ٣٣٤ (٩٤٦ م) .

لم يُروَ له شعر .

— كحل قال البيتين اللذين ذكرا في ترجمته . وفي خلافته ، سقطت القبة الخضراء بمدينة المنصور ، وكانت تاج بغداد ، ومأثرة بني العباس . وهي من بناء المنصور . كان ارتفاعها ثمانين ذراعاً ، وتحتها إيوان طوله عشرون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، وعليها تمثال فارس بيده رُمح . فاذا استقبل بوجهه جبةَ ، عُلِم أن خارجيًّا يظهر من تلك الجهة . سقط رأس هذه القبة في ليلة ذات مطر ورعد .

(١) أبو القاسم عبد الله بن المكتفي بن المعتضد . أمه أم ولد اسمها (أملح الناس) في أيامه عظُم شأن بني بويه . دخل أحمد بن بويه دار الخلافة ، ووقف بين يدي الخليفة فخلع عليه ، ولقبه : معز الدولة . ولقب أخاه علياً : عماد الدولة ، وأخاهما الحسن : ركن الدولة . وضرب ألقابهم على السكة أيضاً .

وقوي أمر معز الدولة ، فحجر على الخليفة ، وقدّر له كل يوم ، برسم النفقة خمسة آلاف درهم . ثم إنه تخيّل منه ، فدخل عليه ، فوقف والناس وقوف على مراتبهم . فتقدم اثنان من الديلم إلى الخليفة فمدّ إليهما يده ، ظنًّا منه أنهما يريدان تقبيلها . فجذباه عن السرير ، حتى طرحاه على الأرض . وجرّاه بعمامته . وهاجم الديلم دارَ الخلافة إلى الحَرَم ، فنهبوها ، حتى لم يبق فيها شيء ! ومضى معز الدولة إلى منزله ، وساقوا المستكفي ماشياً إليه ، فسُئِل وخلع . وبايعوا الفضل بن المقتدر . ثم قدّموا ابن عمه المستكفي المسول ، فسلم عليه بالخلافة وأشهد على نفسه بالخلع .

—

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

— وكان القاهر لما بلغه سمل المتقي قال : صِرنا اثنين ، نحتاج إلى ثالث . ولم يطُل الوقت حتى سمل المستكفي فصاروا ثلاثة .

وذكروا في تولية المستكفي رواية لا بأس من إيرادها ، لما فيها من الدّلالة على أثر المرأة والمال ، في كل دولة ، وفي كل أمة ، وفي كل عصر .

قال أبو العباس التميمي الرازي — وكان من خواص (توزن) — كنت أنا السببَ في البيعة للمستكفي . ذلك أنه دعاني إبراهيم بن الزوبندار الديلمي — أيام المتقي — فمضيت إليه . فذكر لي أنه تزوج إلى قوم ، وأن امرأة منهم قالت له : إن هذا المتقي قد عاداكم وعاديتموه ، وكاشفكم . ولا يصفو قلبه لكم . وها هنا رجل من أولاد الخلفاء ، من ولد المكتفي . وذكرت : أدبَه وعقلَه ودينَه . تنصبونه خليفة ، فيكون صنيعتكم وغرسكم . ويدلكم على أموال جليلة لا يعرفها غيره وتستريحون من الخوف والحِراسة » . ثم قال : فعلمت أن هذا أمرٌ لا يتمّ إلاّ بك ، فدعوتك له .

قلت : أريد أن أسمع كلام المرأة فجاءني بها . فرأيت امرأة عاقلة جزْلةً . فذكرَتْ لي نحواً من ذلك . فقلت : لا بد أن ألقى الرجل . فقالت : تعود غداً إلى هنا . فعدت . فوجدت الرجل قد أُخرج من دار ابن طاهر في زِي امرأة . فعرّفني بنفسه . وضمِن إظهار ثماني مئة ألف دينار ، منها مئة ألف لـ (توزن) وذكر وجوهاً .

وخاطبني خِطاب رجلٍ فاهم عاقل . وأتيت (توزن) فأخبرته فوقع كلامي في قلبه . وقال : أريد أن أُبصر الرجل . فقلت : لك ذلك على أن يبقى أمرُنا مكتوماً . وكان أنِ اجتمعنا به . وخاطبه (توزن) وبايعه .

قال أبو العباس : فلما أُتيَ بالمتقي قلت : لـ (توزن) أنت على —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المطيع لله [1] :

مولده سنة ٣٠١ — خلافته سنة ٣٣٤ (٩٤٦ م) — خلعه سنة ٣٦٣ (٩٧٤ م) .

لم يرو عنه شيء من الشعر .

— ذلك العزم ؟ قال : نعم ! قلت : فافعلْه الساعةَ ! فإنه ان دخل الدار بعُد عليك مَرامُه . فوكّل به وسمّلَه . وجرى ماجرى . وبويع المستكفي بالخلافة .

وصارت تلك المرأة قهرمانة المستكفي ، وسمّت نفسها (عَلَم) ، وغلبت على أمره كله . فلما تمّ على المستكفي ما تَمّ ، قطعوا لسانها .

(١) هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد . أمه أم ولد اسمها (شَغَلة) لم يكن له شيء من الأمر إلاّ الخُطبة . كان يطلب الخلافة ، فلما وليَها المستكفي خافه فاستتر منه . وطلبه المستكفي أشد الطلب فلم يظفَر به . فلما قدِم معز الدولة بغداد ، قيل : إنه انتقل إليه ، واختبأ عنده ، وأغراه بالمستكفي ، حتى قبض عليه وسلمه وخلعه ، على ما ذكرنا .

وفي أيام المطيع ازداد أمر الخلافة إدباراً . كان لها بعضُ الحُرمة ، فزال ذلك كلُّه ، ولم يبق للخليفة أيام معز الدولة وزيرٌ ، وإنما هو كاتب كان يدير إقطاعه وإخراجاته . وصارت الوزارة لمعز الدولة ، يستوزر لنفسه من يريد . وقرر للخليفة نفقةً كل يوم مئة دينار . وصيّره ألعوبة في يديه . خرج به لقتال ابن حمدان ، ثم عاد به وهو معه كالأسير .

ويقول ابن الاثير : كان من أعظم الأسباب في ذلك : أن الديلم كانوا يغالون في التشيع ، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة مستحقيها ، فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة . حتى بلغني : أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين ، والبَيعة لرجل من العلويين . فكلُّهم أشار بذلك ، إلاّ رجلاً —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الطائع (١) :

مولده سنة ٣١٧ — خلافته سنة ٣٦٣ (٩٧٤ م) — خلعه سنة ٣٨١ (٩٩١ م) .

ما رويَ له شعر .

(له بقية) عارف النكدي

— قال له : ليس هذا برأي . إنك اليومَ مع رجل تعتقد أنت وأصحابُك أنه ليس من أهل الخلافة ، فلو أمرتهم بقتله ، لقتلوه مستحلين دمه ؛ فلو صارت الخلافة إلى علوي تعتقد أنت وأصحابُك صحة خلافته ، وأمرهم بقتلك لفعلوه . فاعرض عن ذلك .

وزاد بختيار بن المعز في التشدد على المطيع ، حتى باع قماشه ، وطالت لاستسلامه وخنوعه أيامُه تسعاً وعشرين سنة ، فكثرت فيها النكبات من : زلازل ، وحرائق ، وغلاء ، ومجاعات ، فأكلت الجيف . ومات الناس على الطرقات ، وأكلتِ الكلاب لحومَهم . وبيعت العقَارات بالرُّغفان . وشويت الصغار والمساكين . وجاء جَراد طبق الأرض . وملكت القرامطة ثم العبيديون دمشق .

(١) هو أبو بكر عبد الكريم بن المطيع . أمه أم ولَد اسمها (هزار) مضت الخلافة أيامَه في ضَعفِها وذُلّها إلى منزلة مضحكة . يتصرف بها السلطان كيف أراد . غضِب عضد الدولة على الخليفة فقطع الخطبة له . بُرهة من الزمن ، ولم يكن للخليفة من الخلافة غيرُها . ولما ظهر عضد الدولة على عز الدولة وقتله — خلع الطائع عليه خلع السلطنة ، وتوّجه بتاج مجوهر ، وطوّقه ، وسوّره ، وقلّده سيفاً ، وعقد له لواءين بيده ، —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

— أحدهما مفضض، على رسم الأمراء، والآخر مُذهّب على رسم ولاة العهد. ولم يُعتقد هذا لهواء الثاني لغيره، قبله. وكُتب له عهداً، وقُرىء بحضرته. ولم تجرِ العادة بذلك. فقد كان يُدفع العهدُ الى الولاة بحضرة أمير المؤمنين. فاذا أخذوه. قال أمير المؤمنين: هـذا عهدي إليك فاعمل به.

ثم كان من الطائع بعد ذلك: أن أمر أن تُضرب الدبابات على باب عَضُد الدولة، في الصبح والمغرب والعشاء، وأن يُخطب له على منابر الحضرة. وسأل عضدُ الدولة الطائعَ أن يزيد في ألقابه: تاج المِلّة، ويُجدّد الخِلَع عليه، ويُلبسه التاج، فأجابه إلى ذلك كله. وضُربت ستارة بعث بها عضُد الدولة، لتكون حجاباً للطائع، فلا تقع عليه عينُ أحدٍ من الجُند قبله. ودخل الأتراك والديلم، ووقف الأشراف وأصحابُ المراتب من الجانبين، ثم أُذِن لعضد الدولة فدخل، ثم رُفعت الستارة، وقبّل عضد الدولة الأرضَ، فارتاع زيادُ القائد، وقال لعضد الدولة: ما هذا أيها الملك؟ أهذا هو الله!... قال عضد الدولة: هذا خليفة الله في الأرض! ثم استمر يمشي ويقبّل الأرض سبع مرات.

فالتفت الخليفة إلى خالص الخادم وقال له: إستدنِه، فصعد عضُد الدولة، فقبّل الأرض مرتين. فقال له: أدنُ إلي! فدنا، وقبّل رجله، فثنى الطائع يمينَه عليه، وأمره أن يجلس على كرسي، فقبّلها وجلس بعد أن كرّر ذلك عليه، وهو يستعفي إلى أن قال له أقسمت عليك لتجلس. ثم قال له الطائع: قد رأيت أن أفوض إليك، ما وَكَل الله إليّ من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها، وتدبيرها في جميع جهاتها سوى —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

— خاصتي وأسبابي . فتولَّ ذلك ! فقال : يُعينني الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين . ثم أفاض عليه الخِلَع .

وهذا المشهد المضحك ، الذي عقِبته هذه الولاية العظمى ، كان بعدها أن عضد الدولة يوم جاء بغداد قادماً من همَذان ، بعث رسوله يطلب إلى الطائع أن يتلقاه ، فما وسِعَه التأخر .

ولما أنزلوا الطائع عن سريره — ما أغنى عنه ذله ولا خضوعه — ، جعل يسترجع ويستغيث ، فلا يُلتفَت إليه ، وأخذوا ما في داره من الذخائر . ونهب الناسُ بعضهُم بعضاً . وكان من جُملتهم الشريف الرضي ، فبادر بالخروج فسلِم . وقال أبياتاً :

من بعد ما كان ربُّ الملك مبتسماً إليَّ أدنوه في النجوى ويدنيني
أمسيتُ أرحم من قد كنتُ أغبِطُه لقد تقارب بين العِز والهُون
ومنظر كان بالسراء يُضحكني يا قربَ ما عاد بالضراء يُبكيني
هَيهاتَ أغترُّ بالسُّلطان ثانيةً قد ضلَّ ولاَّجُ أبوابِ السلاطين

☆ ☆ ☆

نادرة : وكأن العامة ، سمعت بقصة زياد : قائد عضد الدولة ، وبما كان منه مع الخليفة الطائع فحولتها إلى هرون الرشيد ووزيره جعفر . فزعمت أن الرشيد قال لوزيره يوماً : آتني برجل لا يعرف الكنُافة نسخر به .

قال : يا أمير المؤمنين ! أو بقي في الناس من لا يعرف الكنافة . قال الرشيد : لا بدَّ مما قلتُ ، وجعل جعفر يسعى في طِلبة الخليفة . إلى أن وقع أصحابه على أعرابي أشعث أغبر ، لا يُدرى أي البوادي قذفت به . فجاؤوا به إليه . وقُدِّمت له الكنافة ، فأخذ ينهمُ فيها . فلما أن فرغ —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قالوا له : أتدري ما أكلت ؟ قال : يقولون : أن الحمّام نعيم الدنيا ، فلا شك أن هذا الحمام .

فلما كان من الغد ، جاؤا به إلى مجلس الخليفة ، فأخذته رهبة الملك وجلالته ، فالتفت إلى الرشيد فقال : السلام عليك يا ربنا ! ثم إلى جعفر فقال : السلام عليك يا رسول الله ، ثم إلى من في المجلس : فقال : السلام عليكم أيها الملائكة السلام عليكم أيها الأنبياء .

فقال جعفر : يا أمير المؤمنين ! أردت رجلًا لا يعرف الكناسة ، فأتيتك بمن لا يعرف الله ، ولا رسوله ، ولا ملائكته ، ولا أنبياءه . . .

وكأن هذه الأحدوثة أو (الحدوثة) من تلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net